

العالم العربي والرحالة الهنود

رحلة النواب محمد مصطفى خان "شيفته"،

بقلم: السيد نثار أحمد الفاروقى

كلية ذاكر حسين - دهلى (الهند)

كان النواب محمد مصطفى خان "شيفته"، من أمراء الهند و من أشهر شعراء اللغة الأردوية فى القرن الماضى و من أرشدتلامذة الشاعر الكبير المرزا أسد الله غالب الدهلوى .

ولد السيد شيفته فى ألف ومائتين و احدى و عشرين فى دهلى واكتسب العلوم المنهجية فى اللغتين العربية والفارسية من كبار الأساتذة فى عصره ثم أخذ الحديث عن أشهر العلماء المعاصرين وأتقن أيضا التجويد على السيد محمد نور الدهلوى .

ولما سافر الى الحجاز فى سنة ألف ومائتين و اربع و خمسين (١٢٥٤) أخذ الاجازة فى الحديث عن الشيخ عبدالله سراج الحنفى والشيخ محمد عابد السندي أيضا .

وأخذ شيفته بيعة الارادة من الشاه محمد اسحاق الدهلوى المحدث الشهير الذى كان حفيد الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوى . ثم أدرك صحبة الشاه أبى سيعد الدهلوى والشاه أحمد سعيد الدهلوى و كلاهما خليفة الشاه غلام على النقشبندى الدهلوى. كما أنه دخل فى الطريقة النقشبندية على يد الشاه عبد الغنى

الدهلوى المهاجر الى مكة ونال منه الاجازة والخلافة فى هذه الطريقة .

ولما قامت الثوار الهند ضد المستعمرين البريطانيين فى سنة ألف وثمانمائة وسبع وخمسين للميلاد ترك شيفته ضيعته جهانكيراآباد، وغادر الى بلدة سأسونة مجاورة لها، وأحرق الثوار بيته وكانت فيه سكتبته المحتوية على بضعة آلاف من الكتب والمخطوطات النادرة الثمينة . ولما أخضعهم البريطانيون أتهم 'شيفته، امام المحكمة بالتقصير أنه قد أعان المجريين إعانة غير مباشرة اذ ترك ضيعته ولم يذد عنها حق ذودها فعوقب لمدة سبع سنوات و بعد ذلك برى من التهمة حين قدم استئنافا الى المحكمة العالية ولكنه قد حرم من نصف سملكاته بالمصادرة .

وكان - رحمه الله - رجلاً ذات سيرة عالية وخصائل طيبة و من حسن سيرته انه دعا صديقه الانجليزى المستر ترسيل، فى المحبس و كان حاكما آنذاك و يرجى منه السعى فى تبرئة شيفته، فلما جاء المستر ترسيل قبل طلوع الشمس كان شيفته قد قام لصلاة الفجر و بدأ يقرأ فيها سورة الدهر - انتظر المستر ترسيل لبضع دقائق، ولما رأى أنه يطيل فى تلاوة القرآن رجع الى بيته بغير أن يراه . ولكن شيفته مع أنه كان قد أحس بمقدمه لم يقصر فى تلاوته فى الصلوة .

وكان فى آخر أيام حياته يشكو السرطان ورأى الطبيب أن اللحم المتزايد يجب أن يقطع لدفع المرض، فكان يزوره الجراح مرة او مرتين فى كل أسبوع لكي يقطع مضغة اللحم الزائدة المتأثرة بالسرطان وكان ذاك المنظر مؤلما جدا لناظره حتى لم يستطع ان يشهده ابنه محمد على خان وانفجر باكيا فقال له شيفته :

''يا بنى ان من ضعف همة الانسان البكاء على هذا الجسد الفانى المصنوع

من تراب . . . ينبغي للمرء أن يصبر على البلاء،، .

و كان المرحوم شيفته عالماً كبيراً و كاتباً بارعاً وشاعراً فحلاً فى اللغتين

الاردوية والفارسية على السواء . قد ضاع معظم أشعاره في الحرب الأهلية في ١٨٥٧ م . وطبع ابنه النواب محمد اسحق خان - سكرتير مدرسة العلوم على كره - كتاباً باسم "كليات شيفته"، في المطبع النظامي ببلدة بدايون، يحتوى على النظم والنثر بالفارسية والاردوية و ذلك في ١٩١٦ م . وأضف الى ذلك انه كان ناقداً للشعر و عالماً لفن الشعر ممتازاً في أقرانه حتى كان يعتمد المرزا غالب على رأيه في النقد الادبي . وألف شيفته كتاباً اسمه "كشن بي خار"، محتويًا على تراجم شعراء اللغة الاردوية والنماذج من أشعارهم . و طبع ذلك في سنة ١٨٣٧ م لأول مرة .

توفي النواب شيفته في سنة ألف ومائتين وست وثمانين وقد بلغ ثلاثاً وستين من عمره و ارخ السيد أطفاف حسين 'حالي، سنة وفاته بآية من سورة الدهر:

"وجزاهم بما صبروا جنة و حريراً،"

ودفن على مقربة من ضريح الشيخ نظام الدين الدهلوى في دهلي .

كتب شيفته تفاصيل رحلته الى الحجاز المقدس في كتاب اسمه "ترغيب السالك الى أحسن المسالك . في اللغة الفارسية وطبع ذلك سنة ألف ومائتين وثلاث وثمانين في المطبع المصطفائي بدهلي وقد ترجم إلى اللغة الاردوية ايضا .

وكان قد لقي خلال رحلته هذه من شدائد وصعوبات غير عاديه . لما وصل مركبه الى جزيرة على مقربة حديدة اصطدم بهضبة مكتومة تحت الماء و تحطم و نقل المسافرون كرهاً بوسيلة السفن الى جزيرة مقفرة موحشة .

بعث شيفته من الحجاز رسالةً الى صديقه الشاعر المعروف مومن خان مومن الدهلوى يقول فيه :

وصلنا الى عدن في الخامس من شهر رمضان ثم سرنا الى مخا بعد يومين

ونزلنا ثلاثة ايام هناك ثم جئنا الى حديدة و من هذا المقام سير خمسة ايام الى جدة بشرط ان يكون هبوب الرياح سوائفاً للسفن ولكن عندما كانت جدة على سير يوسين - كما زعم معلمنا - اصطدم مركبنا بهضبة مخفية تحت المياه وانكسرت حالياً وأخذ الماء يتدفق في المركب . فقلنا "انالله وانا اليه راجعون"، .

وما كنا نعلم في أى موضع نسير أوصلنا الى شاطئى البحر أم انكسر المركب في وسطه . و كانت الظلمة حالكة جدا والبحر يتموج ويهيج فوق التحمل فانتظرنا لطلوع الشمس و لعلك تستطيع ان تتصور مصيبتنا و كيف قضينا تلك الليلة . حفظ الله حياتنا و حياة أصحابنا ذلك الليل من الماء المتدفق المتقاذف وظلمة البحر وصعوبته . ولما طلع الصبح علمنا انه ليس هناك اثر من آثار شاطئى البحر و لكن لاحت لنا جزيرة صغيرة على سافة غير بعيدة من هناك .

فنزل بعض اصحابنا فى الماء حتى وصلنا الى جزيرة حيث وجدنا انه لا ماء فيها لنشرب ولا شجرة لنستظل بها ولا فاكهة لناكلها ولا . . . الا البطائح والمرجان الى حد النظر . وقد كنا أسقطنا امتعتنا فى الماء لعله يصل منه ماشاءالله أن يصل الى الساحل ونتمتع به اذا قدر لنا الوقوف فى الجزيرة . وطبعاً حدث كذلك . فوصل منه الى الساحل ما وصل و ذهب فى البحر ما ذهب .

فاذا اطمأننا من خوف الغرق تفكرنا فى الخروج من هذه الجزيرة الموحشة وكان محالاً على ما يبدو - فقررنا لنبعث بعض اصحابنا فى سفينة صغيرة عندنا الى جوانب البحر لكي يبحثوا عن المخرج من هذا البلاء العظيم . فذهبوا وارسلوا بعد ستة عشر يوماً سفينتين صغيرتين، وأخبرنا الذين كانوا فيها ان رجالنا قد وصلوا الى ساحل القنفذة ولما علم رئيس تلك الجزيرة مصابنا بعث ست سفن لاجل أصحاب السفن، اخذوا يفتشوننا فى بحر العرب كما قال لهم أصحابنا ونحن كنا فى بحر العجم .

فانتظرنا لبقايا السفن لستة ايام ولما لم نجد لها اى اثر أرسلنا بعض اصحابنا فى تينك السفينتين الى الساحل و نحن نتوكل على الله وبه نستعين .

حتى جاءت بقايا السفن المبعوثة لانقاذنا من رئيس القنفذة بعد عشرة ايام ونجونا من هذه التهلكة وتشرفنا بزيارة بيت الله الحرام و نسينا كل ما لاقينا من الشدائد والصعوبات .

يقول شيفته ان بلدة عدن هي بلدة معروفة ولكن اليوم ليست اكثر من قرية يعيش معظم سكانها في الاكواخ المصنوعة من القش، الابنية الشائخة والبيوت المرتفعة فيها قليلة و عدن هو منتهى لحضرسوت وتبدأ منها منطقة اليمن . نحن نزلنا فى بيت السيد زين هو من اكبر هذه المنطقة و من مشائخها المعروفين و عدن اليوم يحكمه رجال افرنجيون انتزعوها من حاكمها الاهلي قبل سبعة اشهر فحسب . وسمعنا انهم كانوا بحاجة الى محطة في بحر العرب لاستعداد مراكبهم من الماء والاسباب خلال سفرهم من قناة السويس فطلبوا من الحاكم الاهلي ان يأخذ منهم شيئاً اكثر من محاصيلها السنوية العادية ويتنازل عن حكومته عليها . كان الاسير رجلا ساذجا لا يعرف مكائدهم ولا يفهم العواقب الكاسنة فيها وفوض اليهم حكومة البلدة و كتب لهم معاهدة دولية حتى انتزعت منه الحكومة . والآن العرب يحاربون رجال الانجليز حتى وقعت مقاتلة بين المواطنين والمستعمرين قبل وصولي بيوم .

من هناك وصلنا الى مخا — هي بلدة صغيرة ايضا . شوارعها ضيقة وبنائاتها قصيرة ولكن الخضراوات فيها كثيرة حتى وجدنا فيها الفواكه الصيفيه مع كوننا فى ايام الشتاء مثل الخيار والعنب وغير ذلك .

ادركت من رجال هذ البلدة صحبة السيد محمد جمال الزبيدى الذى يدرس

كتاب البخارى فى جامع مخا، وجدت اكثر اليمانيين اصحاب العلم والتقوى والصلاح والزهد - وصنعاء هى مستقر لاسام الزيدية - و علم الحديث كما هو يزدهر فى صنعاء اليوم لأحتسب ان يكون نظيرا له فى أى بلد آخر .

وغالبية رجال بلدة صنعاء هم الزيديون - هى بلدة توجد فيها خضراوات كثيرة والاشجار المتراكمة والفواكه المتنوعة والشقائق المتلونة - قال النبي الصادق صلى الله عليه وسلم فى رجال اليمن - "الايمن يمان والحكمة يمانية"، .

ثم وصلت الى حديدة التى هى تحت رئاسة محمد على باشا المصرى و ينوبه ابراهيم باشا - واحمد باشا هو حاكم الحجاز . و من اشهر فقهاء المدينة الشيخ عمر السندى الحنفى و حسن خطيب الشافعى . ولد الشيخ عمر فى السند ولكن اكتسب العلم فى اليمن . وجدنا عنده مكتبته الشخصية تحتوى على كثير من الكتب النفيسة النادرة .

ثم يصف شيفته ام القرى وأهاليها و يقول هى بلدة واسعة معظم سكانها الاحناف ثم الشوافع ثم المالكية وأقلهم حنابلة - الائمة والخطباء فى المسجد الحرام هم اكثر من خمسين، ثلاثون منهم من الاحناف و حنبلي واحد وما بقى من الشوافع والمالكية .

يسبق الامام الحنفى فى سائر الاوقات للصلوة الا فى صلوة الفجر وليه للاسامة الشافعى ثم المايكي ثم الحنبلي - وفي الفجر اول من يؤم فى الصلوة الشافعى لائن الغلس هو مستحب عند الشوافع وآخروهم حنفى لان الاستحباب عندهم فى الاسفار -

و وجدنا فى المدارس علم التفسير والحديث والفقہ يزدهر على مستوى عال ولا رواج هنا ولا حاجة للفلسفة والرياضيات وغير ذلك من العلوم العقلية .

و سن كبار رجال العلم والأدب الذين أدركناهم الشيخ عبد الله سراج
الذي ينبغي أن يقال له سراج حفلة العلماء - يدرس بجانب مصلى الحنبلية تجاه
بيت الله الحرام بين الركن والمقام - حضرت حلقة درسه و قرأت عليه أوائل
الصحاح على سبيل التيمن .

ثم يصف رحلته الى مدينة النبي على صاحبها الصلوة والسلام ثم الى
الطائف وجعرانه وغيرها من البلاد والمشاهد الاسلامية التاريخية .

كان اياه الى دهلي بعد سنتين في ثلاث وعشرين من ذى الحجة سنة ألف
ومائتين وست وخمسين و قليلا ما يقول شيفته في احوال المجتمع آنذاك و لكن
الاشارات فيها ذات قيمة جيدة وتفهم منها حالة بلاد اليمن والحجاز في القرن
الماضى .

